مجلة الشهاب • المجلد: 09، العدد: 02 (2023م) • ص ص 95 - 104
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/391

الإسهامات العلمية والعملية للإمام محمّد بن إبراهيم الفهري البجائي - الأصولي - (ت 612 هـ/1215م)

Th The scientific and practical contributions of Al-Imam Muhammad ibn Ibrahim Al-Fahri Al-Bajai al-Usoli

د/ عقيلة عومري *
مخبر العلوم الإسلامية في الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة1 (الجزائر)
akilaaoumri@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/12 | تاريخ الاستلام: 2023/03/06 | تاريخ النشر: 2023/07/15

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:
تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بشخصية محمد بن إبراهيم الأصولي خرّيج إحدى الحواضر العلميّة في المغرب الأوسط الذي له إسهامات مختلفة في موطنه وخارجه، حيث قام بأدوار هامّة علميّة بفضل تكوينه المميّز الذي جمع بين العلوم النقلية والعقلية، كما تقلّد مناصب عليا في الدولة الموحديّة، مكّنته من القيام بأحسن الأدوار، العلمية والقضائية والسياسيّة التي نستشف من خلالها المستوى العالي الذي كونته حواضرنا العلمية، والتكامل المعرفي والمنهجي الذي صبغ هذه الشخصية.

الكلمات المفتاحية:
الأصولي؛ الحواضر؛ الموحديّة؛ النقلية؛العقلية.

Abstract:
This study aims to introduce the personality of Muhammad Ibn Ibrahim al-Usoli, a graduate of one of the scientific metropolises the Middle Maghreb, who has various contributions in his homeland and abroad, where he played important scientific roles thanks to his distinguished training that combined both the Transmission and Mental sciences.
He also held high positions in the Almohads state, which enabled him to perform the best scientific, judicial and political roles through which reflects the high level formed by our scientific metropolises, and the cognitive and methodological integration that characterizes this personality.

Keywords:
Al-Usoli; the scientific metropolises ; the Almohads state; Transmission sciences; and Mental sciences.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

لقد حفلت كثير من كتب التراجم بأسماء وإسهامات علمية لكثير من علماء المغرب الأوسط في مختلف المراحل التاريخية، ولعل من أبرز هؤلاء عَلَمٌ جمع بين العلم والحكمة في التعاطي مع الكثير من القضايا حتى السياسية منها، ولقد اعتبر مشاركا في علوم شتى منها الفقه وعلم الكلام والفلسفة وأصول الفقه التي اشتهر بها حتى صارت لقبا له، حيث أصبح يعرف بالأصولي.

تكوّن هذا العَلَم في إحدى حواضر المغرب الأوسط، ونهل من معينها الصافي، وغرف من ينابيعها المختلفة، وتربّى على أيدي علمائها الذين بلغت شهرتهم الآفاق، وتركوا بصماتهم العلمية مشرقا ومغربا.

1.1. الإشكالية:

لقد لُقّب مجموعة من العلماء بلقب الأصولي لكثرة تعاطيهم لعلم أصول الفقه، واشتهارهم به، وبروزهم فيه دون سواه، رغم ضلوعهم في علوم أخرى، وعلَمُنا هنا من بين هؤلاء.

ولعلّ السؤال الذي يُطرح هنا: من هو الأصولي المراد في هذه الدراسة؟ وما أبرز إسهاماته العلمية والعملية في الأماكن التي كان موجودا فيها؟

انبثقت عن هذه الإشكالية بعض التساؤلات منها:

هل وظّف معارفه وعلومه في تحقيق العدالة، وعدم الخضوع لضغوط الساسة والحكّام من خلال المناصب التي تقلّدها؟ أم أنّ السلطة الموحديّة التي عمل تحت لوائها استطاعت أن توظّفه لتحقيق أهدافها السياسيّة والإيديولوجية؟

هذا ما تحاول الدراسة الإجابة عنه من خلال ثنايا البحث.

2.1. أهداف للدراسة:

من جملة أهداف الدراسة ما يلي:

- التعريف بعلماء المغرب الأوسط وحواضره العلمية، وإبراز أدوارهم العلمية والعملية اتجاه مجتمعاتهم.

- العمل على استعادة الماضي لأجل بعث الحاضر واستشراف مستقبل واعد للأجيال القادمة.

- دراسة حياة علمائنا وإسهاماتهم المختلفة جزء من دراسة تراثنا الإسلامي التليد.

3.1. أهمية الدراسة:

يكتسي هذا الموضوع أهمية كبيرة كونه يتعلق بجانب كبير من تاريخ هويتنا الوطنية والإسلامية، حيث لا زالت الساحة الوطنية تفتقد للتّأريخ لتراثها الفكري والعلمي وللجانب المعرفي لإنجازات وأعمال رموزها وحواضرها العلميّة.

4.1. منهج الدراسة:

أمّا المنهج المستخدم فهو المنهج التاريخي بآلياته؛ الوصف والاستقراء والتحليل، ففي السيرة استعنت بالوصف كأداة وصفت حياة العالم وتنقلاته المختلفة طلبا للعلم أو العمل القضائي أوالسياسي، كما حاولت تتبع بعض جزئيات حياة الأُصولي لاستخراج ملامح شخصيته التي يعتريها الغموض من خلال بعض مواقفه عن طريق استنطاق بعض النصوص القليلة جدا، كما حاولت الاستعانة بالتحليل لبعض ممارساته العملية المعلنة وغير المعلنة.

أمّا خطة الدراسة فهي كما يلي:.

1.مقدمة.

2. نسب وسيرة الأصولي.

3. الإسهامات العلمية للأصولي.

4. الإسهامات العملية للأصولي.

5. خاتمة ضمنتها أهمّ النتائج وبعض التوصيات .

6. قائمة المصادر والمراجع.

2. نسب وسيرة الأصولي:

هو محمّد بن إبراهيم الفهري البجائي المكنى بأبي عبد الله المشتهر بالأصولي، من أهل بجاية، أصله من بني مرزقان، أو مرزبان من أَهْل إشبيلية من بيت نبيه، ويبدو أنّ أجداده نزلوا مليكش؛ وهي قبيلة من صنهاجة، كانت لهم إيالة بسيط (سهل) متيجة، قضى عليها بنو مرين لما دخلوا المغرب الأوسط[1].

لم تفصل الكتب التي ترجمت للأصولي -رغم كثرتها- في نسبه ومولده، وتعليمه في المرحلة الأولى في مدينة بجاية؛ إحدى الحواضر العلمية التي نالت شهرة كبيرة في هذه الفترة، فقد غلب عليها الوصف المقتضب لنسبه وشخصيته وتنقلاته فحسب، فجلّها تكتفي بنعته أنّه كان قاضيّا، صلبًا، قوي الشكيمة، رحل إلى المشرق و أخذ العلم عن علمائه، و دخل الأندلس مرارا وولي قضاء مرسية[2]، كما استخلف بمراكش على القضاء، و امتحن بقرطبة سنة 593هـ/1197م، وتوفي ببجاية بين عيد الأضحى والفطر سنة اثنتي عشرة وستمائة[3].

1. محمد الأنصاري، الذيل والتكملة، ج5، ص148.

2 . مُرسية : مدينة في الأندلس، يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص107 .

3. محمد بن الأبّار، التكملة لكتاب الصلة، 163/2، أحمد الغبريني، عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة، ص208.

3. الإسهامات العلمية للأصولي:

1.3. تحصيله العلمي والفكري:

لم تفصل كتب التراجم كثيرا في مرحلة تكوين هذا العالم، فقد ذكرت بعض مشائخه في مصر ويبدو أنّها القطر المشرقي الوحيد الذي زاره، ولم يطل مقامه بمصر كما يظهر؛ فقد قال صاحب الذيل والتكملة: "وأخَذَ بمِصرَ عن الرَّبَعيّ والجَبّاب، وحضَرَ مجلسَ أبي الطاهر السِّلَفيّ[1]، ودرس قليلًا على أبي الطاهر بن عَوْف..."[2]، وذكر ابن الأبار أنّه **لقي جمَاعَة وافرة من حَملَة الحَدِيث وَلم يسمع إِلَّا يَسِيرا بِمصْر وَانْصَرف**[3].

ويبدو أنّ هذا العَلم كان يحمل فكرا مغايرا لنظرائه من العلماء في مصر، ولا يتوانى عن طرح أفكاره تلك في مجالسهم العلمية، ممّا أثار حفيظة شيخه أبي الطاهر بن عوف، فأمر بطرده من الإسكندرية معتبرا إياه زنديقا[4].

لعلّ الأصولي إلى جانب بروزه في العلم الشرعي الذي يبدو أنّه أخذ قسطا منه في بجاية ومصر التي رحل إليها من أجل الحديث كما تشير إليه بعض المصادر، ويظهر أنّه عني أيضا بالإقراء، كما أنّ له اطّلاعا واسعا على الفلسفة "**وشُهِر بالعكوفِ على العلوم القديمةِ الفلسَفِيّة**"[5]، ولعلّ هذا ما أنكره عليه شيخه، بل اعتبره زنديقا، ولا علم في تلك الفترة يُتّهم منتحله بالزندقة سوى الفلسفة أو التنجيم، فّإذا استبعدنا الثانية لأنّه لا صلة له به في سيرته -حسب كتب التراجم- تبقى الفلسفة، وهذا ما تؤكده قصته ومحنته مع ابن رشد؛ والتي سنتناولها لاحقا، كما رُوي عن أحد طلبته أنّ له مؤلف في الموسيقى[6].

2.3. عطاءاته العلمية:

كان الأصولي عالمًا بالفقه والأصلين؛ أصول الدين وأصول الفقه -الذي اشتهر به الأصولي-، والخلاف والجدل، واعتنى بإصلاح الْمُسْتَصْفى لأبي حَامِد الْغَزالِيّ فأصلَحَ مختلَّه، وصَحَّحَ معتَلَّه، وعلَّق عليه تعليقاتٍ أفادَ بها، وتُنوقلَتْ عنه، وشُهِر بالعكوفِ على العلوم القديمةِ الفلسَفِيّة، وكان أوّلَ قدومه على مَرّاكُشَ يحضر مجلس الخلفاء[7].

ولمّا عاد من المشرق نزل جزائر بني مزغنا (الجزائر العاصمة)، وأقام بها مدّةً، وأخَذ عنه بها أبو موسى القَزُولِيُّ، ثم قَدِمَ مَرّاكُشَ فأخَذَ عنه بها جماعةٌ، منهم:أبو عبد الله ابنُ الجِذع، وأبو محمد بن

1. هو أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصبهاني، يُنظر: محمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج12، ص570.
2. إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عوف أبي الطاهر، يُنظر المرجع نفسه، ج12، ص724.
3. محمد بن الأبار، التكملة، ج2، ص163.
4. محمد الأنصاري، الذيل والتكملة، ج5، ص148.
5. المصدر نفسه، ص148.
6. أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص210.
7. محمد بن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج2، ص163.

حَوْطِ الله، واستجازَهُ في كتاب الإرشاد للإمام الجويني[1] وأبو يعقوبَ ابنُ الزَّيّات، كما أخذ عنه آخرون ببجاية.

والسؤال الذي يطرح نفسه ما العلوم التي تلقاها الأصولي قبل أن يشرّق؟

لم تفصل المصادر في العلوم التي تلقاها في بجاية، لكن يبدو أنّه تلقى القرآن و الفقه والأصول والكلام، وبعض أصول الدين، لا يستبعد أيضا أنّ الفلسفة تلقاها أيضا بها، لأن رحلته إلى مصر، وربما كانت أول محطاته، و كانت لأجل علم الحديث، ولم تطل إقامته بها، واتهم بها بالزندقة، ولم يتهم بذلك إلا من خلال طرحه لبعض الآراء الفلسفية التي لا يمكن أن يتسامح معها علماء مصر في تلك الفترة.

وربما يرتقي ذلك ليصير دليلا على أنّ مبادئ الفلسفة درسها في بجاية، ونستشف من ذلك أنّ في تلك الفترة كان هناك علوما نقلية وعقلية تدرس في المغرب الأوسط.

من خلال ما جاء في المصادر أنّه . الأصولي . كان يستخدم علومه في تعاملاته، وعدم إخفاء أفكاره عن الآخرين مما ينبئ عن ثقته بنفسه واعتداده بها، كما أوضحت ممارساته عن نظر ثاقب، وسرعة بديهة، وفكر واقد سواء كان ذلك من خلال معاملاته مع شيوخة، وتلاميذه، بل حتى مع السلطة السياسية الموحديّة[2].

4. الإسهامات العملية للأصولي:

1.4. مسلكه في القضاء:

لقد ذكرت المصادر أنّه تولىّ قضاء بجاية ثلاث مرات، وصرفه عنها واليها سنة 609هـ/1212م، كما تولّى القضاء بمدن الأندلس منها مرسية، واستخلف في مراكش، لكن لا تحدّثنا المصادر عن سبب عزله عن قضاء بجاية والتنكيل به، أو عن سبب وفاته، رغم عدله في القضاء و نعت المصادر له بأنّه كان "صادعًا بالحقّ، جَزْلًا في أحكامِه، عَدْلًا في قضائه، لا تأخُذُه فيه لوْمةُ لائم"[3]، ربما كان السبب في هذا التنكيل شدّته على الحكام فقد ذكرت بعض المصادر هذا الأمر: "وكان شديدا على ولاة الأمر الذين يكونون معه ببلد قضائه، لا يسامحهم في شيء من أمورهم ويجاهدهم بم يكرهون في حق الله وفي حقوق المسلمين"[4].

1. محمد الأنصاري، الذيل والتكملة، ج5، ص148، محمد بن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج2، ص163.
2. محمد بن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج2، ص163.
3. العباس السملالي، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، ج2، ص172.
4. المرجع نفسه، ص172.

وقد حدث بينه وبين والي بجاية كلاما فيه غلظة فقال له الوالي: "واللّه لقد أصاب فيكم أمير المؤمنين المنصور"، فقال له: "إن كان أصاب أمير المؤمنين فقد أخطأ فينا أمير المؤمنين الناصر فأفحمه، ورجع فاسترضاه"[1]. وهذا ينم عن ذكاء وسرعة بديهة الأصولي.

هذه الحادثة بعد المحنة التي طالته مع ابن رشد في عهد المنصور ثمّ عفي عنه سنة595هـ/1199م، بل ارتفعت مكانته في عهد الخليفة محمد الناصر (ت610هـ/ 1213م)، لكنه عُزل في سنة 608هـ/1211م، ثمّ كفّ بصره ليموت سنة 612هـ /1215م.[2]

2.4. حضور الأصولي المتميّز في مجلس الخليفة الموحدّي:

لم تحدثنا كتب التراجم عن كيفية التحاق الأصولي بمجلس الخليفة المنصور، ولا عن اجتماعه بابن رشد الحفيد ومصاحبته له، لكن يبدو أنّ قدومه مراكش و اعتلاءه منصب القضاء فيها، وتردّده المتواصل على الأندلس مكّنه من حضور مجالس الخليفة يعقوب المنصور التي كانت تستذكر فيها العلوم المختلفة، وتنعقد فيها المشاورات، ويحضرها نخبة المجتمع، من علماء وخطباء وقضاة ورجال السياسة، كما أنّه زياراته المتكررة للأندلس جعلت علاقته بابن رشد الحفيد تتوطّد، حيث يلتقي به للمدارسة أيضا لمختلف العلوم، وعلى رأسها الفلسفة.

كما أنّ الخليفة يعقد مجالسه في السلم والحرب، وفي أي مكان يقيم فيه. و كان تميز الأصولي في هذه المجالس واضحا، حيث عُرف عنه عدم التسليم في المذاكرة، ولو سلّم الحاضرون للخليفة من الطلبة في المذاكرة، ويُظهر جفاء للخليفة، وكان أمير المؤمنين يجد منه في مجلسه ويعرف له مع ذلك فضلا فلا ينقصه شيئا من حقه[3].

3.4. أهم مواقفه وإسهاماته في مجالس المنصور الموحدي:

أ. لعلّ أهم القضايا العلمية في القضاء التي عارض فيها الأصولي الخليفة المنصور الذي كان يمنع العمل في القضاء بالشهادة على الخط مقلدا الظاهرية، وإن كان فيها خلاف حتى في المذهب المالكي4، لكن عندما عرضت عليه قضية قتل، أخذ المنصور فيها بالخط عكس مذهبه في الأموال، قام الأصولي معارضا قائلا له: منعتم الشهادة على الخط في الدرهم والدينار وتجوزونها في قتل المسلم5.

ب. من مواقفه التي تثبت ذكاءه وسرعة بديهته تلك الحادثة التي حدثت بين الخليفة المنصور وابن رشد الحفيد وقد كان هذا الأخير صديقه، حيث وشى المغرضون بصديقه عند الخليفة الذي كاد أن يفتك به مدللين بعبارة وردت في كتاب الحيوان الذي لخصّه ابن رشد وهي عند حديثه عن الزرافة فقال "رأيتها عند ملك البربر "ممّا أغضب الخليفة الذي يعتد بنسبه ونسب أجداده النسب العربي

1. محمد بن الأبار، التكملة، ج2، ص163.
2. محمد الأنصاري، الذيل والتكملة، ج5، ص149.
3. أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص208.
4. إبراهيم بن فرحون، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ج1، ص300-310.
5. محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص326.

الذي يؤهلهم للخلافة، لكن صديقه الأصولي استطاع أن يخرجه من هذا الموقف، حيث أخبر الخليفة أنّه حدث تصحيف في العبارة فهي "عند ملك البرين"[1].

ج. ومن مواقفه الطريفة التي تثبت حسن تدبيره تصرفه في حادثة وقعت في مجلس الخليفة، إنه لما وقع الحضور بمجلس أمير المؤمنين وأحضرت فيه لآليء نفيسة في طبق وعرضت على الحاضرين في المجلس واستحسنوها فعُدّت وفُقدت منها واحدة، فهمّ أمير المؤمنين بتفتيش الحاضرين، فأشار عليه بسوق قلة من ماء مملوءة، ويدخل فيها كل إنسان يده سترا على الفاعل، فسيقت القلة وابتدئ بمن عن يمين الفقيه أبي عبد الله أو من عن يمين أمير المؤمنين، وكان هو على يساره، فلما انتهت القلة إليه ليدخل يده فيها امتنع وقال: صبوها فان وجدتم حاجتكم وإلا فهي عندي، فصبوها فوجدوها، فخلص من الشك فيه[2].

د. أمّا من أروع مواقفه هو صراحته وجلده ورباطة جأشه، وقوة نفسه في المحنة التي طالته مع ابن رشد سنة 593هـ/1197م، فلمّا وشي الواشون بابن رشد عند الخليفة وجاءوا بقائمة اتهامات تمس دينه وعقيدته وهو ومن معه من أصحابه منهم محمد بن إبراهيم الأصولي فقد سأله. الأصولي. المنصُورُ حينئذٍ، هل نَظَرَ في العلم الذي نُكِبَ ابنُ رُشدٍ الحفيد بسببه(الفلسفة يقصد)؟ فأقَرَّ بقراءتِه والأخْذِ فيه، معَ تحقُّقِه مما عليه في ذلك، حيث كان إقراره بعلاقته بابن رشد وعلم الفلسفة من الأسبابِ التي ألحقَتْه بابن رُشْدٍ في تلك المحنة الشديدة، وتعجَّبَ المنصُورُ والناسُ جميعًا من إجابتِه المنصورَ بالحقِّ عمّا سألَهُ كائنًا فيه ما كان[3].

لم يداهن الأصولي ولم يخف تعاطيه الفلسفة، ولا أنكر صلته بابن رشد ومجالسه تلك ممّا عرضة لنفس العقاب الذي تعرض له ابن رشد الحفيد، فقد عقد المنصور الموحديّ مجلسا لابن رشد وأصحابه ومنهم الأصولي[4]، حضره "طلبة مجلسه وفقهاء دولته" في المسجد الجامع[5]، وكان الاتّهام الموجّه إليهم هو المروق من الدين والخروج عن عقيدة المؤمنين؛ بسبب ماورد في كتب ابن رشد التي كانت تلخيصات لبعض كتب الفلاسفة اليونان، وحضورهم لمجالس ابن رشد[6]، فغرب الأصولي إلى أغمات[7]، وابن رشد إلى إليسانة؛ وهي مدينة خُصصت لليهود بالأندلس[8].

إنّ ما يثير الاستغراب أنّه بعد سنتين؛ أي في سنة 595هـ/1199م، يأتي العفو عنهم من طرف السلطة السياسية فاستُقضِيَ الأصولي عَقِبَ العفوِ عنه ببِجَايةَ، وقد كان استُقضيَ بها مرَّتَيْنِ،

1. عبد الواحد المراكشي، المعجب في أخبار المغرب، ص224.
2. محمد الأنصاري، الذيل والتكملة، ج5، ص149.
3. المرجع نفسه، ص149.
4. يُنظر ترجمتهما: محمد الأنصاري، الذيل والتكملة، ج4، ص222.
5. المرجع نفسه.
6. المرجع نفسه، ج5، ص148.
7. أغمات: مدينة في بلاد المغرب قرب مراكش، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص225.
8. محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج2، ص571.

وبمُرْسِيَة، واستُنيبَ بمَرّاكُشَ، وكان يقولُ حين استُقضِيَ ببِجَاية في المرةِ الأخيرة: "**والله ما تقلَّدتُها رغبةً فيها ولا تغبيطًا بها، ولكنْ تسجيلًا على مُقلِّدِها إيّايَ بقبيح التناقُض الذي لا يَصدُرُ عمّن له مُسْكةُ عَقْل في تولية القضاءِ والفَصْل في الأحكام الشّرعيّة بينَ الناس مَن صَحَّت عندَه زَندقتُه واشتغالُه بعلوم الأوائل!**"[1] ونجهل أسباب عزله عن القضاء سنة 608هـ/1211م من طرف والي بجاية.

من خلال عبارته هذه نستشف أنّ الرجل ذو شخصية قويّة يملك قراره بنفسه، وقد أثمرت فيه دراسته الفلسفية والأصولية، وكان يعتبر نفسه ندا للسلطان لا موظفا في جهاز القضاء.

4.4. مشاركته و حنكته السياسيّة:

يُعتبر الأصولي من العلماء القلائل الذي فقهوا دهاليز السياسة ومنعطفاتها، ربما لأنّ الله حباه بذكاء وسرعة بديهة من جهة، ومن جهة أخرى أنّ دراسته وتعمقه في العلوم القديمة -الفلسفة على الخصوص- صقلت ذهنيته، ودفعته للاتجاه والتفكير الفلسفي الباحث عن البرهان و الحقيقة دائما، كما أنّ دراسته للعلوم الشرعية كأصول الفقه درّبته من خلال عملية استنباط الأحكام من أدلّتها التفصيلية على الاستدلال والاستنباط وقياس القضايا. فمواقفه التي ذكرتها كتب التراجم والطبقات، وإن كانت قليلة، إلاّ أنّنا نستشف منها ذلك كله، فمنذ جلوسه لطلب علم الحديث في مصر لم يخف أفكاره الفلسفية التي جعلت بعض الفقهاء يتّهمه بالزندقة، كما كانت معهودا في تلك الفترة، فكل من جاء بذلك يتهم بالكفر والمروق من الدين دون التحقق من مضمون الكلام ومآلاته.

ولعلّ انضمامه لمجلس الخليفة الموحدي لم يكن اعتباطا، فالخليفة الموحّدي، لا يقبل بأحد إلا إذا أثبت كفاءة علمية، وحنكة سياسية، لأنّ مثل هذه المجالس أهدافها سياسية بعيدة، وإن تطلبت سجالات علمية رصينة لابدّ أن يكون رائدوها من ذوي المستوى العلمي الكبير، لأنه تُطرح فيها قضايا علمية لا يمكن أن يعرضها الخليفة على أيّ كان.

يُعتبر دخول الأصولي هذا المجلس وممارسته للقضاء -كما ذكرت سابقا- في ظلّ الحكم الموحدي في مرسية ومراكش وبجاية هو مشاركة سياسية، إلّا أنّ مشاركته هذه مختلفة عن مشاركات كثيرة لعلماء معه في تلك الفترة، فقد كان صداعا بالحق في هذه المجالس، وكان الخليفة الموحدي يجلّه ويهابه.

كما أنّ حنكته وحكمته رأيناها من خلال بعض الروايات التي جادت بها علينا بعض المصادر في حوادث متعددة :

الأولى: إنقاذه لصاحبه وشيخه ابن رشد عندما اتهم عند تلخيصه لكتاب الحيوان بالانتقاص من قدر الخليفة الموحدي بعبارة "رأيتها عند ملك البربر"، فقد باغته بأنه حدث تصحيف في العبارة وأنّها "رأيتها عند ملك البرّين".

1. محمد الأنصاري، الذيل والتكملة، ج5، ص149.

الثانية: حينما حدث بينه وبين والي بجاية كلام فيه غلظة فقال له الوالي: "واللَّه لقد أصاب فيكم أمير المؤمنين المنصور"، يقصد عندما عاقبهم بالنفي بعد اتهامهم بالزندقة، ثمّ أُكرم فيما بعد في عهد الناصر ابن المنصور، فقال له: إن كان أصاب أمير المؤمنين (المنصور) فقد أخطأ فينا أمير المؤمنين الناصر فأفحمه، فاسترضاه والي بجاية.

الثالثة: أراد أن يثبت أن المحن التي طالته هو وابن رشد وغيرهما لم يكن سببها عقائديا ـ كما حاولت السلطة إثباته والإعلان عنه ـ وهو ما أدى إلى التشهير بهم، بل كان سياسيّا وإلا فكيف يفسر تراجعها في قرارها في مدة وجيزة ؟ وتسند إليه منصب القضاء، حيث قال : "**والله ما تقلَّدتُها رغبةً فيها ولا تغبيطًا بها، ولكنْ تسجيلًا على مُقلِّدِها إيّايَ بقبيح التناقُض الذي لا يَصدُرُ عمّن له مُسْكةُ عَقْل في تولية القضاءِ والفَصْل في الأحكام الشّرعيّة بينَ الناس مَن صَحَّت عندَه زَندقتُه واشتغالُه بعلوم الأوائل!**"[1].

5. خاتمة

هكذا كانت ملامح سيرة أبرز علماء المغرب الأوسط في القرن السابع الهجري في ظلّ الحكم الموحدّي نخلص منها إلى ما يلي:

1.5. النتائج :

- لقد أنجبت حاضرة بجاية في العصر الوسيط جهابذة العلم وتخرج من مدارسها فحول العلم والمعرفة مما جعلهم يخلدون اسم بجاية بماء من ذهب في سجل التاريخ الحضاري للأمة قبل أن يخلدوا أسماءهم.

- لم تكن بجاية تدرس العلوم النقلية فقط بل أيضا درّست العلوم العقلية من فلسفة وطب وحساب و فلك غيرها.

- كان تكوين علماء المغرب الأوسط تكوينا تكامليا معرفة ومنهجا، زاوج بين العلوم النقلية والعقلية، وبين العلم والعمل، وهذا ما تبيّن لنا من خلال العلوم التي امتلكها الأصولي، وطريقة حسم مواقفه، وعدم تردده في إمضائها.

- استعانت دولة الموحدين بكثير من علماء المغرب الأوسط ووظفتهم في أجهزتها، ثقة في علمهم، توقعا لاستمالتهم، وطلبا لولائهم.

- رغم توظيف السلطة السياسية لمحمد بن إبراهيم الأصولي في جهاز القضاء إلا أنّها لم تستطع استمالته ولا توظيفه لتحقيق أهدافها السياسية أو الإيديولوجيّة.

1. محمد الأنصاري، الذيل والتكملة، ج5، ص148.

2.5. التوصيات:

- نهيب بالباحثين في الجامعات الجزائرية الاهتمام بتاريخ بلادنا وعلمائها في العصر الإسلامي الوسيط، الحديث، والمعاصر فلازلنا نجهل الكثير عنهم وعن إسهاماتهم التي كان لها أثرها الطيب هنا وهناك.

- تكوين فرق بحث داخل المخابر الجامعية، أو المراكز البحثية تعنى بإحصاء العلماء وتصنيفهم حسب العلوم والحواضر العلمية لمعرفة ميزات كل حاضرة علمية في الجزائر.

- تشجيع المؤسسات العلمية الباحثين ماديّا ومعنويّا على تحقيق مخطوطات علمائنا وإبرازها للوجود، وإبراز جهود أصحابها في مختلف البلاد للأجيال.

6. قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الأبّار، محمد بن عبد الله، (1995م)، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق، عبد السلام الهراس، لبنان، دار الفكر للثقافة.
- الإدريسي، محمد بن محمد بن إدريس، (1409هـ)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، بيروت، لبنان، عالم الكتب، ط1.
- الحموي، أبو عبد الله ياقوت، [د.ت]، **معجم البلدان**، بيروت، لبنان، دار الفكر.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (1998م)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر**، تحقيق:خليل شحاتة، بيروت، لبنان، دار الفكر، ط2.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (2003م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق، بشار عواد، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط1.
- السملالي، العباس بن إبراهيم، (1998م)، **الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام**، راجعه: عبد الوهاب منصور، الرباط، المغرب، المطبعة الملكية، ط2.
- ابن عبد الملك الأنصاري، محمّد بن محمد، (2012م)، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق: إحسان عباس، محمد بن شريفة، بشار عواد، تونس، دار الغرب الإسلامي، ط1.
- الغبريني، أحمد بن محمد بن عبد الله، (1979م)، **عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة**، تحقيق: عادل نويهض، بيروت، لبنان، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط2.
- ابن فرحون، إبراهيم بن علي، (1999م)، **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1.
- المراكشي، عبد الواحد بن علي، (2006م)، **المعجب في أخبار المغرب**، تحقيق: صلاح الدين الهواري، صيدا، بيروت، لبنان، المكتبة العصرية.
- الحفناوي، محمد بن أبي القاسم، (2012م) **تعريف الخلف برجال السلف**، تحقيق: خير الدين شترة، بوسعادة، الجزائر، دار كردادة، ط2.